

تفسير البحر المحيط

@ 441 @ والتسوية فقدره وهياًه لما يصلح له ، أو سمي إحداثاً خلقاً لأنه لا يحدث شيئاً لحكمته إلاً على وجه التقدير من غير تفاوت . فإذا قيل : خلق الله كذا فهو بمنزلة إحداث الله وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق ، فكأنه قيل : وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده متفاوتاً . وقيل : فجعل له غاية ومنتهى ، ومعناه { فَقَدَّرَهُ } للبقاء إلى أمد معلوم . وقال ابن عطية : تقدير الأشياء هو حدها بالأمكنة والأزمان والمقادير والمصلحة والاتقان انتهى . .

{ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً } الضمير في { وَاتَّخَذُوا } عائد على ما يفهم من سياق الكلام لأن في قوله { وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ } دلالة على ذلك لم ينف إلاً وقد قيل به . وقال الكرمانى : الواو ضمير للكفار وهم مندرجون في قوله { لِلْعَالَمِينَ } . وقيل : لفظ { نَذِيرًا } ينبئ عنهم لأنهم المنذرون ويندرج في { وَاتَّخَذُوا } كل من ادعى إلهاً غير الله ، ولا يختص ذلك بعباد الأوثان وعباد الكواكب . وقال القاضى : يبعد أن يدخل فيه النصارى لأنهم لم يتخذوا من دون الله آلهة على الجمع . والأقرب أن المراد به عبدة الأصنام ، ويجوز أن يدخل فيه من عبد الملائكة لأن لعبادها كثرة انتهى . ولا يلزم ما قال لأن { وَاتَّخَذُوا } جمع و { آلِهَةً } جمع ، وإذا قوبل الجمع بالجمع تقابل الفرد بالفرد ، ولا يلزم أن يقابل الجمع بالجمع فيندرج معبود النصارى في لفظ { آلِهَةً } . . ثم وصف الآلهة بانتفاء إنشائهم شيئاً من الأشياء إشارة إلى انتفاء القدرة بالكلية ، ثم بأنهم مخلوقون ذاتاً أو مصنوعون بالنحت والتصوير على شكل مخصوص ، وهذا أبلغ في الخساسة ونسبة الخلق للبشر تجوز . ومنه قول زهير : % (ولأنت تفري ما خلقت وبعض % . القوم يخلق ثم لا يفري .) % .

وقال الزمخشري : الخلق بمعنى الافتعال كما في قوله { وَتَخْلُقُونَ إِفْكَاءً } والمعنى أنهم آثروا على عبادته عبادة آلهة لا عجز أبين من عجزهم ، لا يقدرُونَ على شيء من أفعال الله ولا أفعال العباد حيث لا يفعلون شيئاً وهم يفعلون لأن عبدتهم يصنعونهم بالنحت والتصوير { وَلَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ } دفع ضرر عنها ولا جلب نفع إليها ، وهم يستطيعون وإذا عجزوا عن الافتعال ودفع الضرر وجلب النفع الذي يقدر عليه العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور التي لا يقدر عليها إلاً أعجز . .

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ° } . قال ابن عباس : هو النضر بن الحارث وأتباعه ، والإفك أسوأ لكذب . { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ° إِنَّ ° } ، قال مجاهد : قوم من اليهود ألقوا أخبار الأمم إليه . وقيل : عداس مولى حويطب بن عبد العزى ، ويسار مولى العلاء بن الحضرمي ، وجبر مولى عامر وكانوا كتابيين يقرؤون التوراة أسلموا وكان الرسول يتعهدهم . وقال ابن عباس : أشاروا إلى قوم عبيد كانوا للعرب من الفرس أبو فكيهة مولى الحضرميين . وجبر ويسار وعداس وغيرهم . وقال الضحاك : عنوا أبا فكيهة الرومي . وقال المبرد : عنوا بقوم آخرين المؤمنين لأن آخر لا يكون إلا من جنس الأول انتهى . وما قاله لا يلزم للاشتراك في جنس الإنسان ، ولا يلزم الاشتراك في الوصف . ألا ترى إلى قوله { فَيُؤْتِيهِمْ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ° } فقد اشتركتا في مطلق الفئة ، واختلفتا في الوصف . . .

والظاهر أن الضمير في { فَتَقَدَّر ° } عائد على { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ° } والمعنى أن هؤلاء الكفار وردوا ظلماً كما تقول : جئت المكان فيكون جاء متعدياً بنفسه قاله الكسائي ، ويجوز أن يحذف الجار أي بظلم وزور ويصل الفعل بنفسه . وقال الزجاج : إذا جاء يستعمل بهذين الاستعمالين وظلمهم أن جعلوا العربي يتلقن من العجمي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب ، والزور إن بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه . وقيل : الضمير عائد على قوم آخرين وهو من كلام الكفار ، والضمير في { وَقَالَ ° } للكفار وتقدم الكلام على { أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ° } { اَكْتَتَبَهَا ° } أي جمعها من قولهم كتب الشيء أي جمعه أو من الكتابة أي كتبها بيده ، فيكون ذلك من جملة كذبهم عليه وهم يعلمون أنه لا يكتب ويكون كاستكتب الماء واصطبه أي سكه وصبه . ويكون لفظ افتعل مشعراً بالتكلف والاعتمال أو بمعنى